الغـــــــايات — ٥

وعقبات الغايات أيا كان نوعها وأنى يكون وضعها شجاً يعترض مدارج الأنفاس ، ووحرة تهد ثبرا سيف الصدور بلا مساس . فالعقبة لفظ تنطق به ثقيلا على لهاتك ومعنى توقف عليه مر شكاتك فى كل أوقاتك . تذكرها النفس التى ظالما ضربت فى ليلها الدامس وظلامها الطامس ، فتتقلع حسرات وتصعد زفرات وتقول « إن فى ذلك لآيات » أول من صادفنا من الخلق أبونا آدم عليه السلام ، ثم صارت سنة إلى ذريته ، وما أرسلنا من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » وسواء أكانت نفسية أو محنة فالعرقلة لقلب يسعى به مناجزها ويعطاه مبارزها . لها فضل جلى على هؤلاء الذين كانوا منها بأمن إذ فتحت آذانهم وفتقت أذهانهم . كان هذا جبانا فعلمته الكر والفر ، وكان ذاك مهانا فأريته الضرع والدر ، ولبس بها المغتر ثياب المعتر ، وأوقفت الجبار قيدا ولم تمهله رويدا . فى كل يوم تأتينا سيناها بأحاديث كالشمس وضحاها ، يسوءنا مغزاها ، أو يسرنا مرماها . فهذا الولد عقبة . وجهه أبوه إلى خير فعاد صفر اليدين ، ثم انغمس فى لذاته واسترسل فى شهواته حتى ذهب به الشراب والشباب . الخمسة أبوه معينا فلم يجده ، وبكاه فقيدا فلم يفقده ، ثم راح يحمل عنه مابقع فيه ، ويساهم فى مصائبه بقدر مالولد فى قلب أبيه . كان الأب غنيا فافتقر ، وكان فى رخاء فأعسر . وأصبح الولد وليس فى قلبه حنان يكفر به عن خطيئته ويخفف على أبيه وقع جريرته ، فتمثل الأب بقول القائل الأمس :

فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل

وهذه المرأة عقبة : فهى لاتفهم معنى لحياتها ، تعمى إلى جاراتها ، وتهمل نظافة أبنائها ، فهى مشغولة أو جاهلة مجهولة ، منزلها حجر ضب ، وخطبها أى خطب ، لاتسر الرجل إذا جزبه نظر ، ولا تبسم إذا جذبه خير ، يتمنى بعلها أن تكفأ من حالق ، أو تهوى من شاهق ، أو ينقض عليها بنيان كالهرم ، أو تصبح جزرا تمقيان والرخم . وهى متعلمة نقرأ ماتبذل وتكتب فتتغزل ، تتقن الدلال وتتفنن فى وسائل الانفلات ، تعمى الرجل لأنها ذات وجدان رقيق ونظر دقيق ، حيها قية وطريقتها سبة . رقى التعليم شعورها للشر ، ودربها على التقليد لتفعل مانريد ، فلا حياء ولا دين ولا حرج على الآثمين . كرهها الزوج وضاق بها وحقرها وبرم بخطبها ، يمحى بنان ندمه على أخرى من دمه ، ويضرب يده على فيه ، لانتنائه

بزوجها وانخداعه ببهرجها، يقول فى الناس إذا سئل عنها انتقاما منها:

وما عرفى إلا خضاب يكفها ... وكحل بعينيها وأثوابها العصفر

تزوجتها قبل الهلال بليلة ... فكان عناء كله ذلك الشهر

وهذا الحاكم عقبة: أهل أمتعفهو منصرف عنها؛ يميد منها؛ بابه أمنع من عقاب الجو، وقلبه مستعار من تمام الدور يتعايق عليه قول القائل:

قد كان بابك مفتوحا لقاصده ... واليوم أوصد دون القاصد الباب

له عيون تصور له أمته بصورة جرفه شوهاء كالعجوز الشمطاء. تثير الحاكم من الأفيال عليها، ولم يستسغ الركون إليها؛ فلا يبان أخيم عليها الرخاء أو ذهبت سرحة فى فضاء. فى لذاذته لا مكانه الحاكم بأمر الله. يسر له القوم البغض والجفاء المحض، ويتربصون به الدوائر والبركاك النائر. والعيون يرصدون فى غيهم ويستمرئون مرعى بغيهم؛ والحاكم فى تياره لا يحفل بقول نصر بن سيار:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام

وأمته تستيقظ بعد غفلتها وتتنبه له صفحتها، فتهب بعد نوم وتخلع ثياب النوم، وتستعير من قرنسا عزما كالأساطيل وتحطم أسوار البستيل؛ ثم يهدأ العاصف والبرق الخاطف ويدب فى عروقها دم الحياة بعد أن كان يتعثر؛ ويقوى عظمها وقد كاد أن يتكسر؛ وإذا هى تنشد قول المتنبى:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

واطلب العز فى لظى وذر الذل .... ولو كان فى جنان الخلود

وهذا القفر عقبة: حجزنى عن طليتى ووقف حائلا بينى وبين غايتى قوافى موفورة وأمانى منظرمة ومنثورة، والمال الذى هو عصب الأمور، وجناح الطيور وكفيل كل صبور، معرض عنى ناء بجانبه مشتغل بأهل منى، يسوق له من خيله وكتائبه. كم كنت أود أن أمرح فى خير عيش أو أكون رب جيش، فأجلب لأمتى ناقماً أو أدفع عنها واقماً، بدل أن أمسيت كهيض الجناح يقبع فى وكره حتى يأتى الله بأمره، وابكى معتزم أن أتحرر من هذا القيد وأغور وراء كل صيد؛ حتى أروى من نهمى هذا الصدى؛ أو أجد على النار هدى؛ ولنا فى العظماء أسوة ولسيرهم منا حظوة؛ وهذا قول الكاظمى:

لا تحسبوا قد مضى عهد العلى فلقد ... يكون ما لم يكن يوما بحسبان

ولا أقل من أن أوانى الدرس واملأ بالعلم زوايا النفس حتى لا تحرم بلادى من لسانى

ومن ثمرات جناني ، فأي مما يشتهي الفؤاد أن تتقدم بما عندك من زاد ، إن لم يكن اليوم شهياً فقد يمسي رطباً جنياً ، أرأيت إلى عيد الحيد كيف تنقل مع الما طر بدأ حتى صار طائراً غريداً ؟ ومعمر في حياة المكتوبين مئة : فهذا معمري عجم عود الدهر ، وأكسبه اليوم والشهر ، زاد كالقادة بصيرة وقادة وقريحة نقادة . بير المكتوبين من أصحاب المذهب الذقيس والمطوقين في باريس .

لو أسندت اليه أمور مهمة ومشاكل معضلة لكان أنفذ من سهم في مسالك وأقمن أن يعبر البحر إلى ساحل جيده - آمون - ونفسه تتاف لدون ، وما هو بنعمة ربه بمجنون ، ولكنه في بلاد العجائب والعجب .

يتساءل الناس عنه من أين حضر وكم من الشهادات استحضر ؟ فإن وجدوا جراباً ، فارغاً وهل له ركن يعول عليه ، وملجأ يلجأ إليه ، حتى يقدم عند امتحاناته ولا يبرم ، بآلامه ، وهو لا تحترم عبقريته . ولا فكرته وروحه إن لم يكن ساعب كبت وكبت . أو رب بيت أو محل امل وليت ؟ إنه قانط والقنوط حليفه وناقم والنقمة أليفه . لا يتذكر بلاده إلا ، بالحزن وسامها الحزن . يغوب أسفاً كلما رأى فتاً من أسعد الناس حظاً ، ورأى الرؤساء يزوغون أمام النبوغ ، وإن فريقان مزعج الأركان مهدم البنيان ، ورأى اضطراب الحال لا يختلف فيه اثنان :

ولربما رجح الخسيس من الحصى ... بالدر عند تراجح الميزان

عبد الفتاح المصري

عيد الضحية والفداء

يتألق تاج التضحية والفداء مساء[1] على رؤوس المجاهدين والشهداء في اليوم الأغر الأبلج ، يوم العيد الأكبر : فتحسسوا رؤوسكم ، وسائر رؤوسكم : أمن بالتاج خافقون ، وبشرف التضحية جديرون ؟ !

يوم أكبرته العرب في الجاهلية ، وكرمه الإسلام عما خفاه ، وجعله كأسا دهاقا يشرب منه المسلمون أطايب القربة والتضحية : أليس الإسلام « ملة أبيكم إبراهيم » هو سماكم المسلمين من قبل ؟ ! فرحى أيها العيد مرحى !

فيه تقدم سيد المضحين إبراهيم ابن تارخ[2] وقد بلغ من الكبر عتيا ، بولده وفلذة

---

(١) كل سنة (٢) والضمير لإبراهيم والد آزر